﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾ [الكهف: 50]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لما قَبْلَها:

ذِكْرُ المعادِ والحسابِ يَحْسُنُ معه ذِكرُ المبدأِ وبيانُ أصلِ الضَّلالِ

بعد أن ذكرَ النَّظمُ الجليل البعثَ ونشْرَ الصُّحف، وختمَ ذلك ببيان عدْلِه تعالى ونفيِ الظُّلم عنه؛ أتبعَ ذلك بقصَّةِ بدءِ الخَلْق مُذكِّرًا بولايته تعالى الموجبةِ للإقبالِ عليه، وعداوةِ الشَّيطان الموجبةِ للإدبار عنه[1]، ومنَ المناسبةِ كذلك أنَّ النَّظمَ الكريم لمّا ذكر يومَ القيامة والحشرَ وإشفاقَ المجرمين من ذلك الكتاب؛ أتبعَه بذكرِ إبليسَ؛ لأنَّه هو الذي حملَهم على معاصيهم واتِّخاذِ شركاءَ مع الله تعالى[2]، وكذلك تناسبُ ما تقدَّمَ مِنَ الآيات التي ذمَّتِ افتخارَهم بأموالهم وجاهِهم، واحتقارَهم الفقراءَ منَ المسلمين، كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ﴾ [الكهف: 28]، فكان إيرادُ قصَّةِ إبليسَ تمثيلًا لهم، فهذه القصَّةُ تذكيرٌ بأنَّ الشَّيطان هو أصلُ الضَّلال[3].

ومن وجوه مناسبةِ هذه الآية لما قبْلَها أيضًا "أنَّ الآياتِ السّابقةَ قد عرضتِ النّاسَ بين يدي الله يومَ القيامة، فإذا هم مؤمنون وكافرون؛ مؤمنون قد آمنوا بالله، واستجابوا لدعوته على يدِ رُسله، وكافرون قد خرجوا عن أمر الله وعصَوا رُسلَه، وهنا صورةٌ في الملأ الأعلى، تُشبهُ هذه الصّورةَ التي وقعت في الأرض، صورةٌ للتَّمرُّدِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 74.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 189.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 340.

والعصيان، ولدعوة من دعوات الإغواءِ والإفسادِ والفسوقِ عن أمر الله، إلى جانبِ الدَّعوة التي يحملُها رسلُ الله إلى النّاس بالهدى والإيمان"[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَفَسَقَ﴾: (فسق) وهو الخُروجُ عَنِ الطّاعَةِ، تَقولُ العَرَبُ: فسَقَتِ الرُّطَبَةُ عَنْ قِشْرِها؛ إذا خَرَجَتْ[2]، والفِسْق: العِصْيانُ والتَّرْكُ لأَمر الله ﷻ والخُروجُ عَنْ طَريقِ الحَقِّ، وفسَق يَفْسِقُ ويَفْسُقُ فِسْقًا وفُسوقًا[3]، وفَسَقَ فلانٌ: خرج عن حجرِ الشَّرع، وهو أعمُّ منَ الكفر، والفِسْقُ يقع بالقليل منَ الذُّنوب وبالكثير، لكن تُعورفَ فيما كان كثيرًا، وأكثرُ ما يقال: الفاسِقُ لمنِ التزم حُكمَ الشَّرع، وأقرَّ به، ثمّ أخلَّ بجميع أحكامِه أو ببعضِه، وإذا قيل للكافر الأصليِّ: فاسِقٌ، فلأنَّه أخلَّ بحُكم ما ألزمَه العقلُ، واقتضتْه الفطرةُ، وقوله تعالى: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾[4]، بمعنى أنَّه خرجَ عن طاعة الله تعالى[5].

2) ﴿أَوْلِيَآءَ﴾: (ولي) أَصْلٌ يَدُلُّ على قُرْبٍ[6]، يُقالُ: تَباعَدَ بَعْدَ ولْيٍ، أَيْ: قُرْبٍ، والمَوْلَى، والصّاحِبُ، والحَليفُ، وابْنُ العَمِّ، والنّاصِرُ، والجارُ، كُلُّ هَؤُلاءِ مِنَ الوَلْيِ، وهو القُرْبُ، وكُلُّ مَنْ ولِيَ أَمرَ آخَرَ؛ فهو وليُّهُ، والوَلايَةُ: تَوَلّي الأمرِ[7]، والقُرْبُ قُرْبٌ معنويٌّ، وهو الصَّداقةُ والنِّسب والحِلْفُ، والمرادُ به في الآية الكريمة: إشراكُهم في العبادة، فإنَّ عبادتَهم الآلِهَةَ هي اتِّخاذُهم أولياءَ من دون الله[8].

3) ﴿بَدَلًا﴾: (بدل) أصلٌ يدلُّ على قيام الشَّيء مقامَ الشَّيء الذّاهب[9]، يقال: هذا بَدَلُ الشَّيء وبديلُه، وبِدْلُ الشَّيْءِ وبَدَلُه وبَديلُه: الخَلَفُ مِنْهُ، والإبدالُ والتَّبديلُ: جَعْلُ شيءٍ مكانَ آخرَ، والأَصل في التَّبْديل تَغْييرُ الشَّيْءِ عَنْ حالِهِ، قال تعالى: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 8/ 631.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فسق).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (فسق).
(4) الرّاغب، المفردات: (فسق)، عدد من المختصين، نضرة النّعيم: 11/ 5261.
(5) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 346.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ولي).
(7) الرّاغب، المفردات، والفيّوميّ، المصباح: (ولي).
(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 342.
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بدل).

قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ [البقرة: 59][1]، والمرادُ به في الآية الكريمةِ: استبدالُ طاعة اللّه تعالى وعبادتِه، بأن أطاعوا إبليسَ وذُرِّيَّتَهُ[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

استكبارُ إبليسَ عن طاعةِ الله تعالى واتِّباعِ المُشركين له

يُخبرُ النَّظمُ الجليل عن قصَّةِ عصيانِ إبليسَ واستكبارِه عنِ السُّجود لآدمَ، قائلًا: اذكرْ - أيُّها العاقلُ - للاعتبار والاتِّعاظ وقتَ قولِنا للملائكة اسجُدوا لآدمَ، سجودَ تحيَّةٍ وتوقيرٍ، فامتثَلوا أمرَنا، وسجدوا جميعًا، إلّا إبليسَ فإنَّه أبى، واستكبرَ، وإنَّما لم يسجدْ؛ لأنَّه كان منَ الجنِّ، ولم يكن منَ الملائكة، فخرج بذلك عن طاعتِنا، فاستحقَّ لَعْنَتَنا وغضبَنا، ثمّ قال موبِّخًا ومُنكرًا على بني آدمَ: أبعْدَ أن ظهر لكم فسوقُ إبليس عن أمر ربِّه، تتَّخذونه وذرِّيَّتَه الذين نهجوا نهجَه أولياءَ وأصفياءَ، فتطيعونَهم بدلَ طاعتي، وتستبدلونَهم بي، والحالُ أنَّهم لكم عدوٌّ، فكيف تصنعون هذا الصَّنيعَ، وتستبدلون بمن خلقَكم، وأنعمَ عليكم بجميعِ ما أنتم فيه منَ النِّعم بمن لم يكن لكم منه منفعةٌ قط، بل هو عدوٌّ لكم يترقَّبُ حصولَ ما يضرُّكم في كلِّ وقت؟ فكلُّ الذَّم لهؤلاء الظّالمين الواضعين للشَّيءِ في غيرِ موضعِه، المُستبدلين بطاعةِ ربِّهم طاعةَ الشَّيطان، فبئسَ ذلك البدلُ الذي استبدلوه بدلًا عنِ اللّه سبحانه[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الواوِ في ﴿وَإِذْ﴾:

جمعُ أوَّلِ الخلقِ ونهايتِه للوعظِ والإرشادِ

الجملةُ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ﴾ معطوفةٌ على الجملةِ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ﴾؛ لأنَّ التَّقديرَ: واذكرْ إذ قلنا للملائكة، وأفادَ هذا العطفُ التَّفنُّنَ في

(1) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (بدل).
(2) الزّمخشري، الكشّاف: 2/ 727.
(3) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 347، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 533، 535.

الوعظ، فكما وُعِظوا بأهوالِ يومِ القيامة وآخرِ أيّامِ الدُّنيا، ذُكِّروا بأوَّلِ أيّامِها، وهو يومُ خلْقِ آدمَ، والغرضُ من هذا الوعظِ: التَّذكيرُ بعواقبِ الهوى والإعراضِ عنِ الصّالحات، وبمهالكِ الكِبْر والغُرور[1].

الغرضُ منَ الحذف في ﴿وَإِذْ﴾:

إيـرادُ القصَّةِ يُغني عن ذكْرِ الأمرِ بحكايتِها

حذفَ النَّظمُ الجليل الفعلَ في مُفتتحِ الجملةِ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ﴾، والتَّقديرُ: (واذكرْ إذ قلنا للملائكة)[2]، والغرضُ من هذا الحذفِ: الإيجازُ في التَّعبير، فما عُلِم منَ السّياق؛ أغنَى ظهورُ المعنى عن ذكره.

الغرضُ مِن إسنادِ الفعلِ إلى ضميرِ التَّعظيمِ:

تعظيمُ القولِ بالأمرِ، تمهيدٌ لبيانِ فظاعةِ الاستكبارِ عنه

أسندَ النَّظمُ الجليل فعْلَ القول إلى ضميرِ الجمعِ الدّالِّ على التَّعظيم في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ﴾، أي: قلنا ذلك بما لنا منَ العظمة[3]، فتعظيمُ الأمرِ بالسُّجود حكايةٌ لفخامة المقام، والمبالغةِ في إيجاب الفعل، وفيه تمهيدٌ لبيانِ فظاعةِ جنايةِ إبليسَ باستكبارِه على الأمرِ العظيمِ الصّادرِ منَ الإله العظيم.

دلالةُ فعلِ الأمر في ﴿ٱسْجُدُواْ﴾:

وجوبُ السُّجودِ لعلوِّ رُتبةِ الآمرِ

عبَّرَ النَّظمُ الجليل بفعل الأمرِ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ﴾ للدَّلالةِ على وجوبِ السُّجود؛ وذلك لصدورِه ممَّن تجب طاعته لعلوِّ رُتبته، فالأمرُ الصّادرُ منَ اللّه تعالى دالٌّ على الوجوبِ ما لم تَرِدْ قرينةٌ صارفةٌ له عن ذلك، والمرادُ مِنَ السُّجودِ هنا التَّحيَّةُ أو الانقيادُ[4].

معنَى اللّام ودلالتُها في ﴿لِأَدَمَ﴾:

تكريمُ آدمَ بجَعْلِ السُّجودِ لذاتِه

عدّى النَّظمُ الجليلُ فعلَ السُّجود باللّامِ الدّالَّةِ على التَّعليل في

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 340.
(2) السّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 7/ 507.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 75.
(4) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/ 305.

قوله جلَّ شأنُه: ﴿ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ التَّكليفَ بالسُّجود إنَّما كان لذاتِ آدم، وهو أصلُ دلالةِ اللّام التَّعليليَّةِ؛ إذا عُلِّقت بفعل السُّجودِ، كقوله تعالى: ﴿فَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِ وَٱعۡبُدُواْۚ ٦٢﴾ [النّجم: 62]، وقولِه جلَّ شأنُه: ﴿لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ﴾ [فصلت: 37][1]، فلمّا كان المرادُ منَ السُّجود تكريمَ آدمَ وتحيَّتَهُ وبيانَ مكانتِه؛ كان الأمرُ بالسُّجود متعلِّقًا بذاتِه بأمرِ الله تعالى.

معنَى الفاءِ في ﴿فَسَجَدُوٓاْ﴾:

المُبادرةُ بامتثالِ الأمرِ مُقتضَى تمامِ العبوديَّةِ

عطفَ النَّظمُ الجليلُ بالفاء الدّالَّةِ على التَّرتيبِ والتَّعقيبِ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ﴾؛ إشارةً إلى سرعة الامتثالِ للأمر، فإنَّ الملائكةَ قد بادروا بالسُّجودِ حالَ صدورِ الأمر منَ الله تعالى وبلوغِه لهم، بلا تردُّدٍ أو تأخُّرٍ[2]، وفي بيانِ سرعةِ امتثالِ الملائكة للأمرِ تمهيدٌ لبيانِ مفارقةِ إبليسَ لهم، كما أنَّه يشيرُ إلى أنَّ الأصلَ في طاعة أمرِ الله تعالى أن يكون بالمبادرةِ بلا تسويفٍ أو تردُّدٍ.

نوعُ الاستثناءِ ودلالتُه ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ﴾:

جنسُ إبليسَ مُغايرٌ لجنسِ الملائكةِ

عبَّرَ النَّظمُ الجليل بالاستثناء المنقطعِ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ﴾؛ لاستثناء إبليسَ منَ الضَّميرِ العائدِ على الملائكة في ﴿فَسَجَدُوٓاْ﴾، وإنَّما كان منقطعًا؛ لأنَّ إبليسَ لم يكن من جنسِ الملائكة، بدليل قولِه تعالى: ﴿كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ﴾، ولكنَّ الله تعالى قد منَّ عليه بأن جعل أحوالَه كأحوالِ النُّفوس الملكيَّة بتوفيقٍ غلبَ على جبلَّتِه؛ لتتأتّى معاشرتُه بهم، وسيره على سيرتهم، فساغ استثناءُ حالِه من أحوالِهم، في مظنَّةِ أن يكون مماثلًا لمن هو فيهم[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 422.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 533.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 423.

دَلالةُ الاستئنافِ بقوله: ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾:

الإخبارُ بكونه مِنَ الجنِّ يُبيِّنُ علَّةَ امتناعِه عنِ السُّجودِ

الجملةُ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ مستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا تعليليًّا، فكأنَّه سُئِلَ عن علَّةِ امتناعِه عنِ السُّجود التي أفادها استثناؤه منَ السّاجدين، فقيل: ما له لم يسجدْ؟ فقيل: لأنَّه كان منَ الجنِّ، فالجملةُ لبيانِ أنَّ سببَ امتناعه بأنَّه لم يكن منَ الملائكة، بل كان منَ الجنِّ[1]، والعصيانُ واردٌ في شأن الجنِّ دونَ الملائكةِ.

معنَى الفاءِ ودلالتُها ﴿فَفَسَقَ﴾:

علَّةُ الفسقِ كونُه من جنسٍ يَرِدُ عليه العصيانُ

أدخلَ النَّظمُ الجليلُ الفاءَ الدّالَّةَ على السَّببيَّةِ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾؛ للدَّلالة على سبب فسقِه، فإنَّ علَّةَ ما قبْلَها سببٌ في حدوث ما بعدَها، أي: إنَّما فسقَ لكونِه مِنَ الجنِّ، والتَّقديرُ: (إلّا إبليسَ امتنعَ ففَسَقَ)[2]، وفي جعْلِ الجنس علَّةً في الفسق تزكيةٌ للملائكة من إيقاعِ هذا الفسقِ، وفي الفاء هاهنا إشارةٌ إلى سرعة حصولِ الفسقِ من إبليسَ[3].

بَلاغةُ الاستعارةِ في لفظِ ﴿فَفَسَقَ﴾:

عصيانُ إبليسَ مُشبَّهٌ بالخروجِ من مكانٍ إلى مكانٍ

في لفظِ ﴿فَفَسَقَ﴾ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ استعارةٌ تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ، شُبِّهَ فيها عصيانُ إبليسَ بالخروج الحسّيِ مِن مكانٍ إلى مكان[4].

دَلالةُ حرفِ المجاوزة ﴿عَنْ﴾:

الخروجُ عنِ الأمرِ كلّيّةً أبلغُ في بيانِ شدَّةِ المعصيةِ

عبَّرَ النَّظمُ الجليل بحرف الجرِّ ﴿عَنْ﴾ الدّالِّ على المجاوزة في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾؛ للدَّلالة على أنَّه تركَ الأمرَ، وابتعدَ عنه[5]، وخرجَ من طاعةِ مولاه، فلم يقل: (عصى أمر ربّه)،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 75، والشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 346.
(2) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 7/ 507.
(3) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/ 249.
(4) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/ 249.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 341.

وآثرَ الفعلَ ﴿فَفَسَقَ﴾ الذي يتعلَّقُ بحرف الجرِّ ﴿عَنْ﴾؛ للدَّلالة على خروجِه عنِ الطّاعة خروجًا كلّيًا، تهويلًا لشأن معصيتِه وتغليظًا لها.

سرُّ الإضافةِ ﴿أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾:

فخامةُ الأمرِ من فخامةِ مصدرِه

أضاف النَّظمُ الجليل لفظَ الأمر إلى الرَّبِّ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾؛ للدَّلالة على أنَّه أمرٌ بحيثُ يجبُ أن يُطاعَ لصدوره عنِ الرَّبِّ المُحسنِ لعباده، إيماءً إلى ما في الأمر من مصلحةٍ؛ لكونِه صادرًا منَ المولى الذي يَعطفُ على عبادِه بالإحسان والرِّعايةِ، كما أنَّه عبَّرَ بلفظِ الرُّبوبيَّة "المُنافيةِ للفسقِ، لبيانِ كمالِ قُبحِ ما فعلَه"[1].

علَّةُ الإضافةِ في ﴿رَبِّهِۦٓ﴾:

أشنعُ العصيانِ معصيةُ الـرَّبِّ الـذي سبقَ منه الإحسانُ

أضاف النَّظمُ الجليل لفظَ الرَّبِّ إلى الضَّميرِ العائدِ على إبليسَ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓ﴾؛ للدَّلالة على أنَّه قد عصَى أمرَ سيِّده ومالكه، المُحسنِ إليه بإبداعه، وغيرِ ذلك منِ اصطناعه[2]، وفي ذلك إشارةٌ إلى قبيحِ ما قام به، وفظاعةِ معصيتِه؛ إذ إنَّه قد عصَى أمرَ ربِّه الذي أحسنَ إليه، وهذا أشنعُ عصيانٍ.

بَلاغةُ الاستعارةِ في جملةِ ﴿عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾:

أمـرُ الله تعالى مَقرٌّ آمِـنٌ، مَنْ يخرجْ عنه؛ فهو فاسقٌ

في لفظِ ﴿أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ من قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ استعارةٌ مكنيَّةٌ؛ إذ شُبِّهَ فيها ﴿أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ بالمَقرِّ الآمِن، وحُذفَ المُشبَّه به، ورُمِزَ له بلازمٍ مِن لوازمِه، وهو الفسقُ بمعنى الخروجِ؛ فزاد قولُه: ﴿عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ هذا الخروجَ قُبحًا وشناعةً[3].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 227.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 76.
(3) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/ 249.

الغرَضُ من أسلوبِ الاستفهامِ في ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ﴾:

مِنَ العجبِ أن يُتَّخَذَ العدوُّ وليًّا بدلًا عنِ المولى الرَّحيمِ والرَّبِّ الكريمِ

افتتحَ النَّظمُ الجليل الجملةَ بالاستفهام المجازيِّ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌۢ﴾؛ لأنَّ الله تعالى لا يغيبُ عنه العِلْمُ بالأشياء والعِلل، والغرضُ مِنَ الاستفهام إنَّما هو التَّوبيخُ والإنكارُ والتَّعجُّبُ؛ لأنَّه أدلُّ على تناهي الغضبِ، وأوجع في التَّبكيت[1]، أي: "أبعدَ ما ظهرَ منه مِنَ الفسقِ والعصيانِ تتَّخذونه وذرِّيَّتَه أولياءَ من دوني، مع ثبوت عداوتِه لكم تتَّخذونَه وليًّا"[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارع ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ﴾:

تجديدُ ولايةِ إبليسَ دليلُ غُلوِّهم بالكفرِ والعصيانِ

آثرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالفعلِ المضارع الدّالِّ على التَّجدُّدِ والاستمرارِ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى﴾؛ إشارةً إلى أنَّهم يتَّخذونَه وليًّا اتِّخاذًا دائمًا متجدِّدًا، وهذا يدلُّ على إخلاصِهم بعبوديَّتِهم لمعبودهم، وإيقاعِها على الدَّوام والاستمرارِ، وهذا يُفصِحُ عن شدَّةِ إصرارِهم على طاعتِه واتِّخاذِه وليًّا، فهُم لا يفارقون تلك الولايةَ، ولا ينْفكّون عنها مهما مرَّ الزَّمانُ.

دلالةُ العطفِ في ﴿وَذُرِّيَّتَهُۥ﴾:

للباطلِ امتدادٌ، وللمُجرمين إصرارٌ على الاتِّباعِ

عطفَ النَّظمُ الجليل ذرِّيَّةَ إبليسَ على المفعول به في قوله جلَّ شأنُه: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌۢ﴾، أي: أفتتَّخذونَ إبليسَ، وتتَّخذون ذرِّيَّتَه أولياءَ من دوني، فالمرادُ بالذُّرِّيَّة الأتْباعُ[3]، وذلك للدَّلالة على أنَّ لإبليس أتباعًا يتَّبعونَه، وهذا يُشير أنَّ للباطل حزبًا وجماعةً تعملُ لنصرته، وهذا العطفُ يكشفُ أنَّ دعوةَ الباطلِ لا تتمثَّلُ في شخص إبليسَ فحسب، بل إنَّ للباطلِ امتدادًا واستمرارًا.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 76.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 190.
(3) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 347.

سِرُّ الإضافةِ في ﴿وَذُرِّيَّتَهُۥ﴾:

تَشنيعُ أتباعِ إبليسَ بانتسابِهم إليه

أضافَ النَّظمُ الجليل لفظَ الذُّرِّيَّة إلى الضَّميرِ العائدِ على إبليسَ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾؛ ذمًّا لتلك الذُّرِّيَّةِ وتشنيعًا عليها؛ لأنَّ الإضافةَ تدلُّ على انتسابِ هؤلاء الأتباعِ إلى إبليسَ انتسابًا كانتساب الذُّرِّيَّةِ لا ينفكُّ، فهم مُنتسبون إلى صاحب المعصيةِ الكُبرى الأولى، وإنَّما لحقَهمُ الذَّمُّ؛ لأنَّ المضافَ يكتسبُ منَ المضاف إليه الذَّمَّ أوِ المدحَ، على حسب نوعِ المضافِ إليه.

دَلالةُ تنكيرِ ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ والتَّعبيرِ عنها بالجمعِ:

كثرةُ الأصنامِ والآلهةِ المُهانةِ مُشاهدةٌ في الواقعِ

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ عنِ الأولياء بصيغة الجمعِ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ﴾؛ للدَّلالة على أنَّهم أولياءُ كثيرون، وهذا يُطابق الواقعَ، فهو يشيرُ إلى كثرة الآلهةِ الَّتي اتَّخذها المشركون من دون اللّه تعالى، كما أشار التَّنكيرُ إلى تهوين شأنِهم وتحقيرِهم، فهم ليسوا الأولياءَ الجديرين بالاتِّباع، بل هم أولياءُ اتُّخِذوا للولاية بلا استحقاقٍ.

سِرُّ تقييدِ الاتِّخاذِ بقوله: ﴿مِن دُونِى﴾:

عِلْمُ المشركين بتَدنّي كلِّ شيءٍ عن رُتبةِ الله تعالى دليلُ ضلالِ شركِهم

قَيَّدَ النَّظمُ الجليل الأولياءَ بشبه الجملة في قوله جلَّ شأنُه: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى﴾؛ للدَّلالة على دونيَّة مرتبةِ أولئك الأولياء، وأنَّهم قاصرون عن رُتبة الولايةِ والإلَهيَّةِ، أي: تتَّخذونَهم أولياءَ تعبدونَهم، وهم مُباعدون لي[1]، فأفاد القيدُ المبالغةَ في ذمِّهم لاتِّخاذِهم أولياءَ مُتدنّين عن مقامِ الإلَهيَّة، وهم يعرفون الإلهَ الحقَّ الجديرَ بالعبادة.

سِرُّ التَّقييدِ بالجملةِ الحاليةِ الاسميَّةِ ﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ﴾:

قَيَّدَ النَّظمُ الجليل الاتِّخاذَ بالجملةِ الاسميَّةِ الدّالَّة على الحال في قوله جلَّ شأنُه: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 342.

اتِّخاذُ العدوِّ وليًّا ضلالٌ لا يفعلُه العاقلُ الحصيفُ

عَدُوٌّ﴾، أي: تتَّخذونَهم أولياءَ في حالة عدائِهم لكم، وأفاد هذا التَّقييدُ تأكيدَ الإنكار عنِ الاتِّخاذ والتَّغليظِ فيه، فإنَّ مضمونَ الجملة دالٌّ على منع وقوعِ الاتِّخاذ؛ لأنَّ العداءَ منافٍ للولاية[1]، فإنَّ اتِّخاذَ الوليِّ في حالة كونِه عدوًّا يُثيرُ الاستنكارَ الشَّديدَ، ومبعثُه مع إبليسَ: عصيانُه لربِّه، وعداوتُه لبني آدم، وهاتان الخِسَّتان منشأُ الإنكارِ[2].

الغرضُ من تقديمِ المجرورِ ﴿لَكُمْ﴾ على الخبرِ ﴿عَدُوٌّ﴾:

خَصَّ إبليسُ وأتباعُه النّاسَ بالعَداءِ

قدَّم النَّظمُ الجليل شبْهَ الجملة منَ الجارِّ والمجرور على الخبر في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾، وأصلُ التَّركيب: (وهم عدوٌّ لكم)؛ وإنَّما قدَّمَ شبْهَ الجملة لإفادة معنَى التَّخصيص، وذلك للمبالغة في شأن عدائِهم، أي: إنَّهم خَصّوكم بهذا العَداءِ، فحشَدوا كلَّ العداء الممكنِ عليكم، وتفرَّغوا من كلِّ شيء إلّا مِنَ العَداءِ لكم.

دلالةُ الاستئنافِ في قوله: ﴿بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾:

الذَّمُّ يتَّجهُ للاتِّخاذِ والمتَّخَذِ

الجملةُ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ مستأنفةٌ، والغرضُ منَ الاستئناف إنشاءُ الذَّمِّ لإبليسَ وذرِّيَّته؛ لاتِّخاذهم أولياءَ من قِبَل المشركين، والمعنى: بئسَ البدلُ للمشركين الشَّيطانُ وذرّيتُه[3]، فالاستئنافُ جيءَ به لإنشاء الذَّمِّ، ليكونَ ذلك نصًّا على سوء البدلِ المُتَّخَذِ منَ المشركين، لا على الاتِّخاذِ فحسبُ.

الغرضُ مِنَ الخَتْمِ بأسلوبِ الإنشاءِ غيرِ الطَّلبيِّ:

التَّعقيبُ بأسلوبِ الذَّمِّ يؤكِّدُ الذَّمَّ والإنكارَ على اتِّخاذِ إبليسَ وليًّا

عقَّب النَّظمُ الجليل بأسلوب الإنشاءِ غيرِ الطَّلبيِّ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾؛ إذ لمّا كان اتِّخاذُ العدوِّ وليًّا أجدرَ شيءٍ بالذَّمِّ؛ عقَّب عليه بهذه الجملة[4]، ولينصَّ على ذمِّ البدلِ المُتَّخَذِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 228.
(2) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/ 249.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 342.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 77.

منَ المشركين، لا على الاتِّخاذ وحدَه، فهو مبالغةٌ في الذَّمِّ، فاتِّخاذُ وليٍّ مِن دون اللّه تعالى مذمومٌ، وكونُ الوليِّ المُتَّخَذِ هو العدوُّ الأكبرُ للنّاس؛ فإنَّه سيكون مذمومًا أشدَّ الذَّمِّ؛ فلذا جيء بالذَّمِّ بعد الإنكارِ على الاتِّخاذ والتَّوبيخِ عليه، وبعد بيانِ الحال ﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ المُفصِحةِ عن شدَّة الضَّلالِ والبلاهةِ التي كان عليها المشركون؛ إذِ اتَّخذوا إبليسَ وذرِّيَّتَه أولياءَ من دونِ اللّه تعالى، فكان المَجيءُ بهذا الأسلوب لتأكيدِ ذلك الذَّمِّ والتَّوبيخِ والإنكارِ.

الغرَضُ منَ التَّعبير بالإظهارِ دون الإضمارِ:

استحقاقُ الذَّمِّ للاتِّصافِ بالظُّلمِ

آثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بالاسمِ الظّاهرِ ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾ دون المُضمَرِ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾، فلم يقل: (بئس لكم بدلًا)؛ وذلك لتعليق الذَّمِّ بالوصفِ، وللتَّشهير بالمُخاطَبين لنسبتِهم إلى الظُّلم، ليكونَ الذَّمُّ لهم بهذه الصِّفة، وللإشارة إلى قُبح ما فعلوه لكونِه ظُلمًا ظاهرًا[1].

سِرُّ توسيطِ ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾ بين فعل الذَّمِّ وتمييزِه:

الظُّلمُ أصلُ المَذمَّةِ، ومنشأُ السّوءِ

توسُّطُ الجارِّ والمجرور ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ بين فعلِ الذَّمِّ ﴿بِئْسَ﴾، وبين تمييزه ﴿بَدَلًا﴾؛ للإشعارِ بأنَّ الظُّلمَ هو منشأُ الذَّمِّ، ومبعثُ السّوء، وسبيلُ كلِّ مثلبةٍ[2].

بَلاغةُ الالتفاتِ مِنَ الخطابِ إلى الغَيبةِ:

إسنادُ الذَّمِّ لصفةِ الظُّلمِ النّاتجِ عنِ الاتِّخاذ يَعمُّ مَن فعلهُ مُطلقًا

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بالاسمِ الظّاهرِ ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾ الدّالِّ على الغَيبةِ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾، دون الإضمارِ والجريِ على نسقِ الخطاب في الجملةِ السّابقةِ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾، التي تقتضي

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 228، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 342.
(2) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/ 249.

أن يكونَ التَّعبيرُ: (بئس لكم بدلًا)؛ وذلك لتعميم الحُكم[1]، فليس الذَّمُّ متَّجهًا للمخاطَبين فحسبُ، بل هو استحقاقٌ لكلِّ مَنِ اتَّخذ إبليسَ وليًّا في كلِّ زمان.

فائدةُ التَّعبير بالتَّمييزِ ﴿بَدَلًا﴾:

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بالتَّمييز ﴿بَدَلًا﴾ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾؛ لتفسيرِ الفاعلِ المُضمر، والمخصوصُ بالذَّمِّ محذوفٌ، أي: بئس البدلُ إبليسُ وذرّيتُه[2]، فأفاد التَّمييزُ الاستغناءَ عنِ المخصوص بالذَّمِّ، والتَّنبيهَ على أنَّ الذَّمَّ كائنٌ لوقوع الاستبدالِ، فالمجيءُ بالتَّمييز فيه بلاغةٌ للإيجاز في التَّعبيرِ.

التَّمييزُ طريقٌ للإيجازِ في التَّعبيرِ، إذ يُفسِّرُ المحذوفَ ويُبيِّنُ وجْهَ الذَّمِّ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 77.

(2) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 7/ 508.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثلاثون،
سورة الكهف من الآية 37 إلى سورة مريمَ الآية 12
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثلاثون، سورة الكهف من الآية 37 إلى سورة مريمَ الآية 12
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 30 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-27-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 30 : المجلد الثلاثون، سورة الكهف من الآية 37 إلى سورة مريمَ الآية 12.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-27-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9725630 بتاريخ 2024/11/04م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»